عمارة الكنائس والأديرة العراقية وشجون السياسة والتراث الثقافي

د.علي ثويني
معمار وباحث / استوكهولم

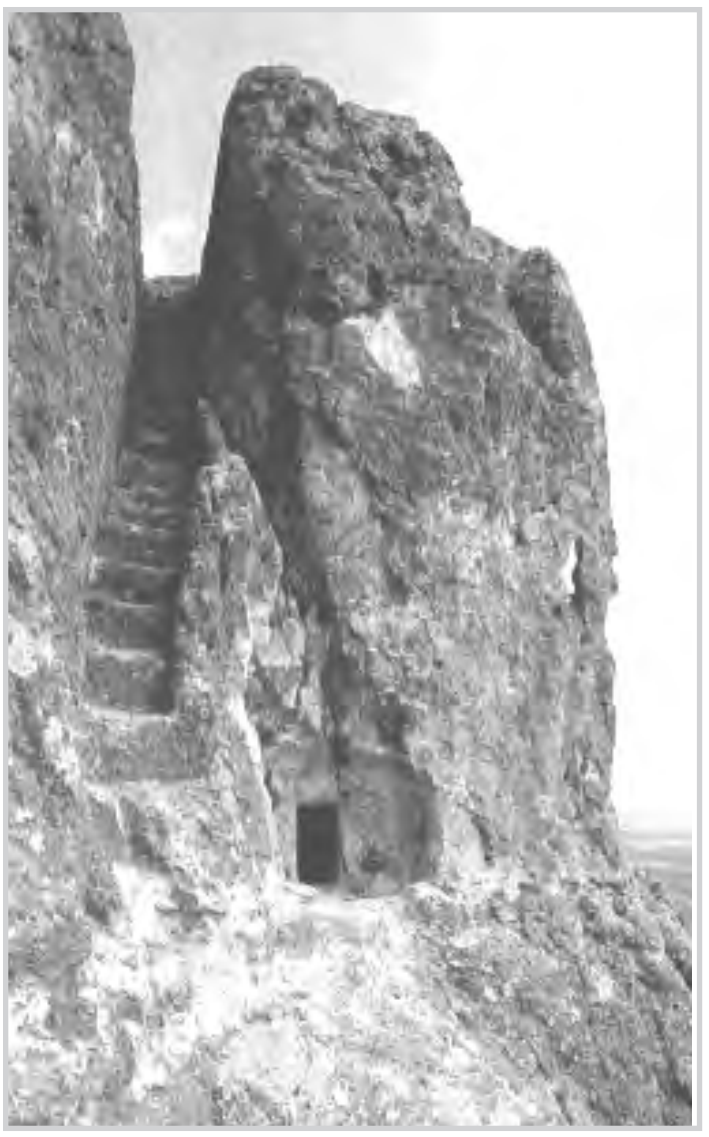

أصابنا الأسى ونحن نتابع الإرهاب المجنون وهو يعيث فسادا، فبعد أن قتل الأبرياء في العتبات المقدسة، نجده اليوم يفجر حقده الأعمى في بيوت الله من كنائسنا العراقية، بما يثبت مثل كل مرة أن تخبطه الأعمى قد أخرجه من سوي العقل ولبيب المنطق، بعد أن تجرد نهائيا منذ أول جريمة اقترفها من الأخلاق والدين. ونقرأ من رسالته الدموية هذه العداء السافر لكل ماهو عراقي،وإسلامي وإنساني، فالمسيحيون أخوة في الوطن ونظراء في الخلق، ولم نجد من حلل قتلهم من الأولين والآخرين، وأن كنائسهم كانت وستبقى عهدة في رقابنا إقتداء بالعهدة العمرية لنصارى القدس،وأن رسولنا الكريم أستقبل نصارى نجران في المسجد النبوي الشريف وأرسل أول مهاجريه الى النجاشي النصراني.

لم يع هؤلاء الظلاميون أن النصرانية لم تأت من روما قطعا، ولم تطأ أوربا إلا بعد ثلاثة قرون من الويل والثبور كان قد أصاب النصارى والموحدين من أهل الشرق. ولم تلد اليونان يسوعا حتما وإنما كانت الناصرة وبيت لحم والقدس. ولم تكن المسيحية إلا وحدانية إسترسلت في ارض كنعان، من وحي إبراهيم ونهل أور العراقية، وحملت في ثناياها نتاج تراثنا الروحي التوحيدي، الذي وطأته منذ البشارة، بعد أن حل بها الحواري (توما) بحسب روايات الكلدان وخاصة (يوسف السمعاني) فأن إنتشار المسيحية في العراق جاء على يده وكذلك (برتلماوس)،وثلاثة مبشرين(أدي) وتلميذيه (أجي) و(ماري) وترجح الروايات كون الأول أحد تلاميذ السيد المسيح(ع).

وعلى خلاف مسيحيي الشرق في دول الجوار الذين عانوا من الحروب الطائفية الأهلية، فأن مسيحيي العراق كانوا متآخين مع أخوتهم في الطيف العراقي. وماحدث للآشوريين من مذابح على يد بكر صدقي في بواكير العهد الملكي،لم يكن إلا موقفا قوميا مسيسا، أتخذته السلطة الملكية وأستغلها صدقي نفسه،بعيدا عن أية دلالات طائفية نائية عن قاموسنا الاجتماعي. ولم نسمع عن أحزاب مسيحية سابقة أو تدخل للكنيسة في الشأن السياسي أوممارسة لإنقلابات عسكرية بالرغم من أن الكثير منهم تبوأ مناصب عسكرية سامية.وقد أستثمرت سلطة البعث حربها ضد إيران لمغازلة الغرب حينما شرعت بمعاضدة بناء الكنائس أو صيانتها، بما أوحى أنهم سلطة متفتحة تحارب سلطة متحجرة.وحدث أن أستغل أسمهم جزافا في إستجداء بيانات التعاطف الغربية خلال سنوات الحصار في التسعينات، وأستغل أسم طارق عزيز وبعض أقطاب السلطة المبادة ذلك، ولم يكن إلا محض مكيدة أريد منها الإيحاء بأن هؤلاء طابور للغرب في العراق. وربما يكون هذا قد ترك أثرا في نفوس رعاع القوم وجهالهم وسفهائهم، حينما أنطلت عليهم المسوغات، وجعلهم في التسعينات يصبون جام غضبهم على أخوتنا النصارى ويضطهدونهم بمبرر (الحملة الإيمانية) الواهية التي كانت من أمهات الدجل البعثي.

ومن المسلم به أن نصارى العراق وكلدان وسريان وأثوريي الشرق عموما، يعتبرون العراق قبلتهم، ولسنا ذلك في المهاجرين، حينما وجدنا أجيالهم مازالت عراقية، ووجدناهم قد جملوا بيوتهم بصور بابل وآشور وأور وخارطة الفراتين، وهذا ما أستغربه كل من صدق بخطاب البعث وجهل حقيقة أن نصارى العراق هم أهله الأصليون وهم الأكثر من الجميع على الإطلاق إخلاصا لأرضه وتراثه وثقافته، كونه قد تداخل في سجاياهم مع قدسية تراثهم الروحي والتاريخي. وهكذا فأن مسيحيينا يبقون بالدليل المنقول والمعقول الأكثر حبا وإلتصاقا بهذا البلد، لأن جذورهم هي الأعمق في سياق الأسبقيات.

وفي أخبار التاريخ نجد أن نصارى العراق لم يشكلوا شريحة خاصة متقوقعة،بل كانوا أكثر عراقية،ونجدهم قد عانوا من مناخات السياسة. وظلموا من الساسانيين والبيزنطيين،وتذكر أحداث التاريخ أن سابور(شاهبور) قد قتل منهم ١٦٠ ألف،خلال حكمه الطويل.

وكان النصارى قبل الإسلام يتكلمون لغتين فأما عربية أو آرامية أو أقل من ذلك فارسية ، وكان طبقاتهم أما سكان مدن،أو فلاحين أو رعاة في البوادي.و أعتنقت قبائل عربية المسيحية ومنها أياد وكندة ولخم.ومن أكثر من وردت مناقبه من العراقيين(حنا الكسكري) الذي بنى أول دير في البرية،وكسكر التي ينتمي إليها هي في موضع (قلعة سكر) اليوم. ومنهم من أكتسب حظوة كما هو حال القديس(سمعان القديم) المولود عام ٣٦٠م الذي تكلم عنه (تاودوريس) أسقف قورش ونسب إليه كرامات كما لحق فيما بعد بالمتصوفة المسلمين، ونقل أن زوجة الملك (أردشير) قد شفت من مرض عضال بشفاعته، جعلها تطلب من زوجها الكف عن إضطهاد مسيحيي العراق..

ونصارى العراق ينتمون إلى عدة مذاهب منها الكاثوليكية وأسمها وارد من (الجثليق) الذي ورد مرادفا لأسم طائفة عراقية. وثمة مذاهب أخرى كالمشرقية (النسطورية) والسريانية والأرثوذكسية، والارمنية أما المتأخرة منها فهي الكاثوليكية والأنكليكانية. ومن الجدير ذكره ان أجداد العراقيين كانوا قد ساهموا في نشوء وإرتقاء الفكر الفلسفي المسيحي منذ انتشاره الأول، وما فرق اليعاقبة والنساطرة وغيرها إلا من تداعيات ذلك النتاج الفكري الذي يحاكي في كنهه ظهور المذاهب في كنف الإسلام الفكري على يد العراقيين كما التسنن والتشيع والتصوف والإعتزال والأباضية. وقد أعتنق حتى أباطرة بيزنطة المذاهب العراقية، وعلى العموم فأن الفرس حموا المذهب النسطوري،ودعموا دولة المناذرة، على حين ساند الروم اليعقوبيين والتزموا معاضدة الغساسنة في الجزيرة. وقد ساهم مسيحيو العراق في نشر المسيحية في أصقاع شتى مثل أقطار البلقان والشعوب السلافية الشرقية، مما جعل ورود الكثير من المفردات الآرامية العراقية في طيات لغاتهم أمرا له مبرره التاريخي.

ومن أهم الشخصيات التي تركت أثرها في التاريخ العراقي (مارية التغلبية)، ولقبت بماء السماء،لرقة طباعها ودماثتها،وحتى أن إبنها المنذر الثالث (٥١٣-٥٦٢م) لقب بإبن ماء السماء،وإبنه سمي بعمرو إبن هند (حكم بين أعوام ٥٦٢ -٥٧٤م). وهند هذه تركت أكبر أثر في ديرها الذي مكث ردحا من الزمن بعد الإسلام. وهي هند بنت عمرو بنت مجر الكندي،كما ذكر ذلك ياقوت في معجمه.ولها قصة مع سعد إبن ابي وقاص، وكذلك المغيرة بن شعبة الذي خطبها لما تولى الكوفة،فردته ردا جميلا وماتت على رهبانيتها. ويحكى عن عمرو أنه قتل في ثمالة نديميه المقربين عمرو بن مسعود وخالد المظلل،وأقام على قبريهما غرايبب أو طربالين وهي برج عالٍ أو (مسلة) عظيمة، لم نجد لها اليوم أثرا. وأنتشرت الأديرة في أواخر القرن الرابع في أطراف العراق،وقادها عراقيون ربطوا بين الإيمان والعلم (الفكر العرفاني أوالغنوصي). ويمكن أن يكون (أوكين) العراقي هو من نشر الرهبنة في منطقة الجزيرة وعموم العراق،ومن تلامذته الراهب(يونان أو يونس) الذي شيد دير مار يونان في الأنبار،وكذلك دير(يونس) القابع في الموصل. ومن الجدير ذكره أن يونس هذا كان طبيبا وفيلسوفا، ووصل إلى الزهد والتقشف بمحض أفكاره، التي يمكن أن تكون من تاثير البيئة نفسها التي أظهرت الزهد والتصوف الإسلامي فيما بعد ولاسيما على مذهب رابعة العدوية البصرية. كما تولى الراهب (عبدا) بناء دير كبير في (درقان) بعد أن حصل على رخصة من حاكم (المدائن) (تموز)،ثم بنى تلميذه (عبد يسوع) دير الصليب ودير (باكسايا) وآخر على الفرت.

وفي القرن الخامس ظهر القديس (ماروثا) الذي شافى ابنة (أردشير الثاني) فجعل أباها يسمح لهم بنشر النصرانية بين العجم، وقد بني بسببها أعداد كثيرة من الأديرة في العراق،وطفق العراقيون في بناء الأديرة في كل الأنحاء وأشهر ما وردت أخبارها : دير (أشموني) قرب بغداد ودير (الزندورد) الواقع في منطقة المربعة في الرصافة في شرق بغداد ودير (درتا) غربي بغداد ودير (سابور) غربي دجلة،ودير (سمالو) ودير (الثعالب) قرب بغداد عند منطقة الحارثية في الكرخ، ودير (مديان) على نهر كرخايا (الخير اليوم) في كرخ بغداد، وكذلك (دير مار جرجيس) قرب بغداد، ودير (كليليشوع) المجاور لمقبرة الشيخ الصوفي معروف الكرخي في الكرخ و(دير سمالا) الواقعة في منطقة الشماسية (الأعظمية اليوم) ودير (باشهرا) بين بغداد وسامراء(معناها بيت أو مدينة القمر)، ودير(السهوسي)، ودير (مارفثيون)و(دير سرجيس) قرب سامراء،ودير (العاقول) بين المدائن والنعمانية،ودير (العجاج) على تخوم منخفض الثرثار،ودير (القياره) عند الموصل ودير(باعربا) بين الموصل والحديثة على دجلة(معناه بيت أو مدينة الماء)،و(دير ميخائيل)، ودير (الخنافس) على تلة تشرف على دجلة على تخوم نينوى، ودير (الخوات) في عكبرا، ودير (كوم) عند الموصل، ودير (يوسف) و(دير مار إيليا) شرق الموصل،ودير (الأعلى) بالموصل على جبل مطل على دجلة في قلعة باشطابيه قرب المستشفى الجمهوري اليوم ، ودير (ملكيساوا) فوق الموصل ونجد (بيت عذري) المعروف بجبل القوش الذي أحتفظ ببعض الصوامع المنقورة في الجبل وعددها ٤٠٠، والتي تذكر بالهيئات الأولى للعمائر المسيحية، ونجد كذلك على تخوم القوش شمال الموصل (دير هرمزد)،وبني كذلك (دير السيدة) الذي يعتبر من أكبر ديارات الكلدان وبنائه الحالي بني عام ١٨٥٨,وللكاثوليك السريان يوجد (دير مار بهنام) الواقع جنوب شرقي الموصل. ومن أهم ديارات السريان وأقدمها (دير مار متي) الواقع على جبل مقلوب شرق الموصل، والذي يعود الى المئة الميلادية الرابعة.والظاهر أن منطقة الموصل قد أحتفظت بجل الأمثلة مع وجود أديرة أخرى بالقرب من مدينة بلد، ودير (ماري) عند سامراء،ودير (مار يوحنا) قرب تكريت، ودير (الجرعة) بالحيرة، ومن أشهر الأديرة العراقية هي الثلاثة التي شكلت قلب مدينة الكوفة، وأهمها دير هند بنت المنذر بن ماء السماء. وآخر في النجف بين قصري أبي الخصيب والسدير، وديري (الأسكون) بالحيرة،وثمة ديرقرب واسط ودير (هزقل) عند البصرة ودير (الدهدار) بنواحي البصرة، ودير (الأبلق) في الأهواز. ومن المحتمل أن يكون (قصر الأخيضر) احد تلك الأديرة التي تغير حالها وأضيفت لها الملحقات الإسلامية وطبعت هويتها، كما أكدته المس بل عام ١٩١١, ومازال لغط يدور حول (قلعة بازيان) قرب السليمانية، وكل الدلائل البحثية تشير إلى أنها دير عراقي محض وليس قلعة كما يدعي بعض المدعين، بما يؤكد وسع إنتشار ذلك النوع من العمائر في العراق القديم.

وذكر اليعقوبي في مؤلفيه التاريخ والبلدان بصدد سامراء: (كان في سر من رأى متقدم الايام صحراء من أرض الطيرهان لاعمارة فيها وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة). ويكرر ذلك كل من الشابشتي حين يذكر (دير السوسي) و(دير مرمار) جنوب سامراء وياقوت نقلا عن البلاذري وأكد أسمه (دير مر جرجيس) وعين موقعه شمال مدينة بلد ب ١٥كلم، وكذلك (دير عبدون) في المنطقة نفسها.

والدير يعني البيت الذي يتعبد ويقطن ويتعايش فيه الرهبان.والكلمة واردة من كلمة (دار) السامية،والجمع أديار والديراني صاحب الدير ويقال دير وأديار وديران ودارة وادارات وديرة(مازالت تستعمل في الجنوب العراقي والجزيرة والخليج) ودوار (في لهجات أهل المغرب).وقد جاء بالفارسية بما يعني القبة. وربما تكون الوظيفة المعمارية للدير، وكذلك مسقطه ونظام بنائه، قد أسترسل في العمارة الإسلامية بما يخص الربط والزوايا والخانقاوات والتكايا وبيوت الصوفية التي اختصت بإقامة المنقطعين من الزهاد،والمرابطين في الثغور. وقد وردت أسماء كثير من المدائن والمواقع مثل دير الزور ودير قني.

وكان النصارى الأوائل قبل الإعتراف بهم قد لجأوا الى المغاور والجحور الجبلية كأول محاولات معمارية عقيدية، وسكن تلك الفضاءات الرهبان والمنقطعين والمتأملين. وأحتفظت الأديرة بمواضع إنقطاع الصالحين الأوائل،وتجسدت في الصحارى ورؤوس الجبال. وحدث أن أستبشر المؤمنون خيرا بعد إعتراف بيزنطة عام ٣٠٩م بالنصرانية دينا رسميا. ولم يقترن ذلك بمد حضاري أو إبداعي معين، ولاسيما في العمارة، وآثرت العمائر الأولى أن تتقمص سمات ما ورثته مدارس العمارة المحلية من أعرافها المسترسلة من القدم. فجاءت رومانية في غرب أوربا وبيزنطية في شرقها، وحدث أن تطورت لاحقا من هذه المصادر.

ومابني من العمائر المسيحية في الحواضر والمدن والقرى فيعتبر كنيسة، وظهرت ملامح أولى الكنائس والاديرة في العراق على سجية العمائر في نوعيها البابلي في المناطق الرسوبية، والأشوري في مناطق التلال والجبال. وأقدم الكنائس العراقية كما ورد في بعض المراجع السريانية هي (كنيسة كوخي) العظيمة التي أقامها (مار ماري) في المدائن، التي كانت تعتبر مركز جثالقة النصارى المشارقة قبل إنتقالهم الى بغداد بعيد تأسيسها. ثم طفق العراقيون بعدها في إشادة كنيسة في كل قرية ومدينة، وكل منها كنيت بأسم قديس أو سميت بتذكار ديني. وقد اكدت الحفريات التي قامت بها البعثة الألمانية في أطلال (سلمان باك) وجود آثار كنيسة فيها، وذهبت الى تقدير إنشائها الى المائة السادسة للميلاد.

والكنيسة كانت تسمى (بيعة) ومجموعها (بيع)، وذكر ياقوت الحموي في معجمه أن البيع بنيت في(المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران ويجعلون في حيطانها الفسافس وفي سقوفها الضب والصور).وكلمة (كنيسة) ترد من الآرامية بصيغة كنوشتو cnoushtoوالتي تعني جماعة أو محفلاً وقد كانت قد استعملت في الإسلام بصيغة "صوامع" ووردت من القرآن الكريم في سورة الحج الآية ٤٠ :) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ). يقول عنه د. مصطفى جواد أصله متعبد اليهود، وتسمية بيعة ترد من باب المجاز والإستعارة. والكنيسة في العمارة قضبان تغرز في الارض ويلقى عليها ثوب او سعف النخل يستظل به ويستتر، وفي الكردية (كبرا) وهو ازج من الخشب محشو بورق الشجر.ودرجت في اللغات السامية الجنوبية كالحبشية بصيغة (مكوراب Mekurab) وهي قريبة من لفظ ومعنى (محراب) العربية. وقد استعملت في اليونانية بصيغة (اكليسيا) المعنى نفسه ومحرفة عن اللفظ الآرامي الأصلي، ومنها انتقلت الى اللغات اللاتينية ومنها الفرنسية (Eglise)والإسبانية Eglesia)..)واستعملت بالإيطالية (باسيليكا Basilica)وهي مقتبسة من كلمة (بازيليكا) التي ورثوها من مباني المحاكم الرومانية التي أنتقل هيكلها المميز الى العمائر المسيحية الأولى وورد الإسم في جل الكنائس الأرثوذكسية بصيغ متقاربة كما في الرومانية بصيغة (.Biserica)وفي اللغات الشمالية جاءت متقاربة مع الإنكليزية التي استعملت لفضة (جيرج Church)وجاءت بالسويدية (شيركا).

وأقدم الكنائس الباقية اليوم تدعى (الطاهرة الفوقانية) وتقع شمال شرقي الموصل، على مقربة من (باش طابية) على ضفاف نهر دجلة، الذي كان فيضانه وبالا عليها، بالرغم من الترميمات وأخرها الذي جرى عام ١٧٤٣, وتكتنف الموصل كذلك كنيسة(شمعون الصفا) في محلة مياسة التي يعتبرها البعض أقدم كنيسة عراقية باقية منذ القرن الثالث الميلادي.

ويمكن إعتبار بغداد من أهم المواقع التي شغلتها العمارة المسيحية قبل تاسيسها الإسلامي عام ٧٦٢م، حيث للتسمية الأرامية (بيت غدادو) أي بيت الغنم أوالمرعى، ربما يؤكد صفتها الأولى الذي يعتبر أحد ما ذهب إليه الباحثون. وقد وجدت الكنائس في غربها (الكرخ) ثم انتقلت إلى رصافتها تباعا،وأقدمها التي كانت بجوار بغداد المدورة في محلة (المنطكه) حاليا،وكذلك في (محلة العقبة) المعروفة اليوم (محلة الشيخ صندل) كما سكنوا في (محلة قطفتا) وهي محلة المشاهدة الحالية. ومن أكبر كنائس بغداد كانت على تخوم المشهد الكاظمي اليوم شمال بغداد في محلة (البحية) الحالية،وتطورت هذه الكنيسة حتى أصبحت مجمعا كنسيا أو ديرا كبيراً جاء وصفها لدى المسعودي، وذكرها ياقوت الحموي واصفا إياه(حسن العمارة، كثير الرهبان، وله هيكل في نهاية العلو)، وعلى تخومه (موقعه اليوم مدينة الحرية) كانت (بيعة سونايا)، ثم صار يدعى بـ (الدير العتيقة).

وبعد إنتقال العراقيين النصارى إلى الرصافة متماشين مع توسع بغداد اللاحق، وما حل في الكرخ من خراب بعد الفتن وحروب الأمين والمامون، حيث انتقلوا إلى شمال المدينة (الاعظمية اليوم) بما كان يدعى (الشماسية) منحدرا من أسم (شماس) وهو القس النصراني،حيث يقول ياقوت فيها :(الشماسية منسوبة الى بعض شماسي النصارى، وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، واليها ينسب باب الشماسية (باب المعظم) وفيها كانت دار معز الدولة البويهي..وهي أعلى من الرصافة ومحلة أبي حنيفة). وفي (دار الروم) (حاليا حي صليخ)، كانت قد أنشئت أهم الكنائس (بيعة درب دينار) التي بقيت قائمة حتى العام ١٣٣٣م إبان الدولة الإيلخانية. وكانت تقع هنا أكبر كنائس المشارقة في دار السلام وهي (بيعة السيدة مريم)، وقد ذاع صيتها في البلدان لما احتوته من رسوم إيقونية كان يمكنها أن تنقل لنا ملامح عن فنون مدرسة بغداد في الرسم على الحيطان (الفريسكو)، من الحضارات الرافدية. وقد بقيت محلة في ذلك الجانب تدعى(رأس الكنيسة) تقع قرب الميدان اليوم، حتى حلول التغييرات المعاصرة في بنية بغداد الحضرية.

وتصميم مساقط الكنائس العراقية مربعة او مستطيلة، وقد تطور ذاتيا مسترسلا من العمارة المحلية، ولم يتاثر بالتطورات التي جلبتها شيوع المسيحية في بيزنطة وروما. فقد كان التصميم متضاما ومحوري الهيئة ومتناظر الفضاءات إلى حد ما، كما في كنائس الحيرة والمدائن، ولم يشترط تقبيلا معينا كما لدى الصابئة واليهود والمسلمين. حيث قسمت الكنيسة فيه إلى ثلاثة أقسام، قسم أمامي يدعى (قدس الأقداس) أو (المذبح) يجاوره من اليمين بيت العماد (التغطيس بالماء)،وغرف القسسة من اليسار، وهو معزول هيكليا عن الجزء الوسطي الذي يؤمه العامة من الرجال من خلال بوائك تؤدي إلى مجاز يدعى (أشقاقون) الذي تعزله عن (القنكي) وهو ما يسبق قدس الأقداس، ويسلكه الكهنة والشماسون أثناء تكميلهم الخدمة الطقوسية بين القنكي والبيم. ويدعى الجزء الوسطي (القسطروم) الذي يسبقه (البيم) الذي يحوي أماكن (الرسائل) و(القربان) و(الجاغوتا)،ويخص هذا الجزء الرجال من العامة، معزولا عن قسم النساء الذي يدبره في المؤخرة.

واليوم توجد الكثير من الكنائس في أرجاء بغداد تتبوأ كنيسة الأرمن موقع الصدارة في (الباب الشرقي)، وهي حديثة البناء ومبنية على الطراز الأرمني التقليدي. ومن أكثر الكنائس قدما وهيبة هي (كنيسةاللاتين) أو (السيدة العذراء) الواقعة في الشورجة على شارع الخلفاء مقابلة لمسجد الخلفاء المحتضن لمنارة (سوق الغزل) في حي صبابغ الآل.بنيت هذه الكنيسة بين أعوام (١٨٦٠-١٨٧١)، ويمكن ملاحظة التغيير الذي طرأ على تصميمها مقارنة بالكنائس التقليدية. حيث اختير لها المسقط المتصالب، المسقف بأزج على محورها الطولاني بينما لم يحتج هذا النظام التسقيفي في تغطية المحور العرضاني. وقد أرتفعت قبتها المفلطحة لتكتنف ناقوسا في ذروتها عند تقاطع المحورين، وجلست على رقبة تخللتها مناور مزججة. وبني برج النواقيس بهيئة متدرجة أعلى المدخل الرئيسي، ليسمو فوق ثلاثة عقود مخمسة رمزية العدد ووظيفية الهيئة، حيث يكتنف الأوسط منها المدخل الرئيسي للكنيسة. وبالرغم من إضفاء ملامح خارجية جديدة على بعض أجزاء الكنيسة ولاسيما قبتها إلا أن عمارتها كانت بأيدي أساطين بناء عراقيين،حيث مارسوا خلاله حذقهم المعهود في إضفاء ملامح العمارة المحلية من العقود والقبوات والاطناف حتى خلال عنصر المقرنصات، والريازة بالطابوق الذي كون خامة بناء الكنيسة.

وكان يلتقي في هذه الكنيسة وما الحق بها الأب العالم أنستاس الكرملي(٧) بطلابه وأحبابه من كل الملل، حتى وافاه الأجل ودفن في باحتها. وقد مرت تلك الكنيسة بويلات كثيرة كان أكثرها إيلاما إحراقها من قبل الجيش التركي ضمن ما حرق عند إنسحابه من بغداد بعد خسارته الحرب العالمية الأولى.وأعيد ترميمها عام ١٩٢٠،واستمر حالها مترنحا حتى أستملكتها الحكومة العراقية عام ١٩٥٦، حيث بقيت حتى العام ١٩٦٦ عندما اغلقت لمدة عقد من الزمان، حيث وهبتها الحكومة العراقية عام ١٩٧٦ للأقباط المصريين الذين بدا عددهم يتزايد في بغداد حينئذ. وعلى العموم فأن عمارة الكنائس العراقية وتاريخها يستاهل من الباحثين الخوض فيه وإثرائه بالبحث والتدوين والرسم، والتحليل والمقارنة. وأملنا أن لا يكون رد فعل بعض الأخوة أكبر من الفعل الشنيع للإرهابيين، ويلصقوا الأمر بالإسلام الحنيف، أو يتخلوا عن عراقيتهم الخالدة.

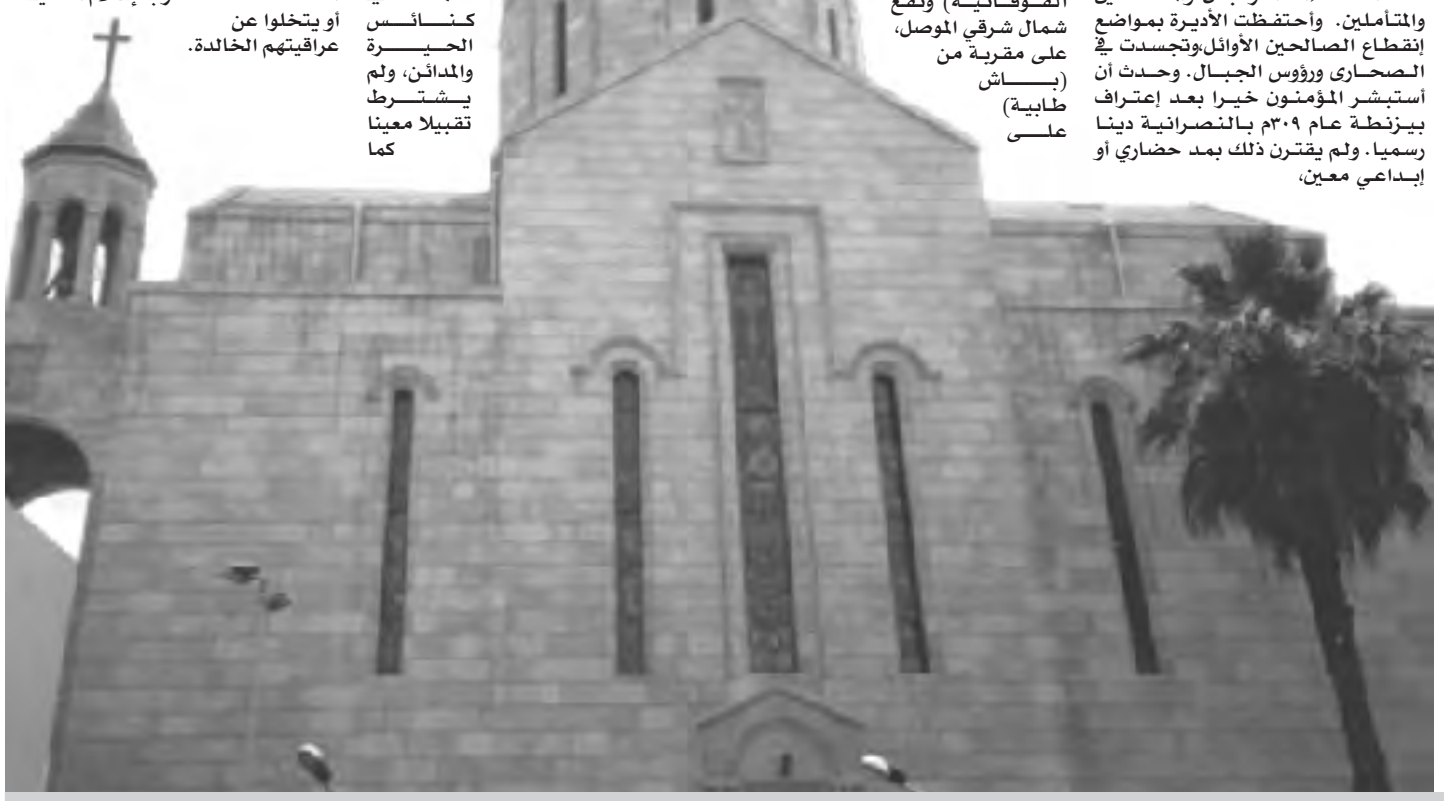

في معرض الفنان رافع الناصري.. الأناقة في حضرة الفن

عمان / محيي المسعودي

في قراءة شكلية لأعمال رافع الناصري الذي أقام معرضه الأخير في جاليري (أربعة جدران)،

نستطيع تحديد بعض الملامح التي حكمت السطح المرئيس لأعماله وحددت ملامح معينة لها ذلك لأن تلك الملامح هي أشباه بالإشارات التي تبعثها قوى مختبئة، هي علائم ونذر بركان يعربد في الجوف ويبحث عن حيز رخو كي ينفلت منه إلى السطح. نرى شكلاً مهذباً لطيفاً ومتناغماً يفترش اللوحة، ونلاحظ انسجام كتلة الشكل مع حجم اللوحة التي توافقه توافقاً وتكاملاً لونياً ترتفع قدرته حد النطق، كما تتميز ألوانه عند تجاورها بإشعاع يصل حد الإضاءة لذلك نجد أن هذه الألوان تكشف أسرار علاقتها بالضوء من خلال الحجم والمساحة والتجاور فتتألق مستنفرة ومتحدثة بكل طاقتها ولذلك اللون المعتق (المعتق)؛ هيئة تدل على الهيبة والأصالة والعراقة حيث لا يوجد التباين اللوني في اللوحة الواحدة ولا بين اللوحات المختلة فظلت اللوحات تتبادل وتتناول اللون الهادئ من الأصفر الذهبي إلى الأسود مروراً بدرجات الألوان المختلفة بين هذين اللونين. وإذا حصل وأن خرجت الفرشاة عن هذا السياق فلا يتعدى ضربة صغيرة تحمل شفرة أو رسالة أراد الفنان إيصالها للمتلقي.

هذا بعض ما يمكن قراءته على سطح اللوحة وهو مرئي إلى حد ما، وقد حاول الفنان أن يوظف بعضه جمالياً بشكل تام بعيداً عن أية ثيمة ولغة أخرى كما هي جمالية النهار والليل التي لا تؤثر في الأشياء تأثيراً كيميائياً، وهو هدف سام يقع في صميم الرسالة التي يحملها الفن، وقد حمل في بعض من جوانبه إشارات يمكننا عند الإمساك بها الدخول إلى صميم أعمال الناصري والتي تدل على جغرافية معينة ترتبط بها جغرافية الفنان النفسية على مستويين الأول معاصر، والثاني مثيولوجي، إذ نرى مقاطع أو أشطراً من أبيات لشاعر بغداد مثل ابن زريق أو الأحنف على بعض اللوحات ندرك مدى اللوحة والحنين والشوق والألم الذي كان يعتصر قلب الشاعر وهو يغادر بغداد متوجهاً إلى الأندلس فيقول (استودع الله في بغداد لي قمراً) هذا الفراق وهذه الغربة اللذان لسعا ابن زريق وغيره هما نفسهما يلسعان الناصري فيلوذ الناصري كما تلوذ حمائم الجواهري وهو يحيي دجلة فيقول (حييت سفحك عن بعد فحييني.. يا دجلة الخير يا أم البساتين).. هكذا تتحدث لوحات الناصري لوعة وحنيناً وحباً عارماً وألماً ولكن كم تبدو ساكنة لوحات الناصري لمن لا يملك مفاتيحها.. ومترفة ثرية حيث الحروف والجمل والأشكال التي طمستها الألوان الداكنة وزحف عليها اللونان الأسود والأحمر الداكنان، لتقف ما بين التقادم والحروب بكل ويلاتها من القتل والدمار وعشق المكان ومعرفته لمن ارتبطت أوردته مع الجداول والشوارع والبيوت..

يكاد المعرض أن يتشكل من مجموعات تتوحد لوحاتها مع بعضها بصفات وخصائص وتختلف عن غيرها، من تلك المجموعات التي شكلت المعرض إجمالاً، فهنا مجموعة تطهر فيها الأعمدة والصليب، ويسودها لونان أسود وأحمر يتمازجان في بعض المساحات بينما (الأصفر) أو اللون الذي يحمل إضاءة أكبر يتركز في الشكل (المصلوب)، وهناك لوحات أربع ظلت تحمل الألوان نفسها بالمساحات نفسها تقريباً مع اختلاف قليل أيضاً بالشكل بينما تحرك اللون الأحمر النقي الفاتح بإشارات من خلال حجمه وشكل الخط وحركته، ومهما سادت العتمة في شكل اللوحة من خلال الألوان القاتمة فإن هناك دائماً مساحة مضيئة تصر أو تكبر، دائماً، وكأنها نافذة لدخول الضوء.. إلى اللوحة، التي تقودنا بدورها إلى اللامرئي في أعمال الناصري، وإذا كان التجريد ألغى التشخيص والقصدية في أسلوبه وتكنيكه فذلك ليس من أجل الغموض أو من أجل التجريد نفسه، ولكن حتى يتواءم مع المناخات النفسية والفنية والفكرية للفنان وبواقعية خبرته الطويلة في البحث الدؤوب والجاد من أجل الوصول إلى حقائق يبحث عنها كل مبدع.